الرؤية وصراع الأن اعند المهمشين من الشعراء السود في العصر الجاهلي

الباحثة/ إسراء محمد إبراهيم

المعيدة بقسم اللغة العربية كلية الآداب – جامعة المنيا

أ_المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير رسله وأنبيائه، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فموضوع هذا البحث هو:(الرؤية وصراع الأنا عند المهمشين من الشعراء السود في العصر الجاهلي)، دراسة تعتمد على البنيوية التكوينية /التوليدية ،للوسيان جولدمان ،بتطبيق منهجية رؤية العالم، التي تأتي دائماً بنتائج إيجابية ،إذا ما طُبِقت على فئةٍ اجتماعيةٍ محددةٍ، وعند دراسة الشعراء السود المهمشين، أجد أن رؤية العالم أنسب المناهج التي تساعدني للوصول إلى النتائج المأمولة.

تسعى الباحثة في هذا البحث إلى دراسة النصوص الشعرية ،التي تتناول في طياتها رؤية العالم ،من خلال الخطاب الذاتي الذي يُولِّد الصراع الداخلي ،عبر حديث الذات الموجَّه للشخصية السوداء _الأنا_ المتصدرة للحدث الشعري، فالصورة الشعرية تكشف عن رؤية العالم، من خلال رؤية الذات المحدودة ،فتتضح الصورة الحقيقية لحياة السود المُهَمَّشين، التي صنعت داخل وجدانهم صراعاتٍ نفسيةً متعددةً ،فالصورة قد تحتمل الإيجابية والسلبية ،ومن ثم هي المؤثرة على مضامين الرؤية، وفي الوقت نفسه تكون الرؤية هي الأخرى مؤثرةً عليها ،فالصراع الذاتي هنا ،هو صراعٌ متولد عن صراعٍ آخر سابقٍ له ،صنعه الصراع الوجودي، المعتاد ما بين الأنا السوداء ،والآخر الأبيض.

ب_التمهيد:

قد أوجد الخلل الاجتماعي الذي عانى منه المجتمع الجاهلي، مأساةً عاشها المُهَمَّشون بشتى صورها ،في ظل النظام الاجتماعي المهلهل، الذي شكَّل معوقاً حال بينهم وبين قبائلهم، حيث

عاش هؤلاء أشكالاً متعددةً من صور القهر الإنساني، التي قد يكون مردها إلى وضاعة النسب، أو سواد الجلد، أو الفقر، ومن ثم تنصهر تلك الفئات وتتداخل سوياً في بوتقة الظلم والتهميش؛ لَيستولِد المجتمع الجاهلي في النهاية طبقتين، الأولى تضم شتى أنواع الرفاهية الاجتماعية، والأخرى تضم شتى أنواع التهميش ،بصورِه العامة والخاصة، ولا سيَّما السود والعبيد.

ونتيجة تعمق الشعور بالظلم والقهر في دواخلهم، ثارت في مخيلاتهم حروب نفسية؛ لمقاومة الآخر المغتصِب، لحرية الحياة، وعدالة الواقع، ومن ثم شكلت تلك الحرب لديهم رموزاً ،انعكست من خلال عوالمهم الشعريَّة ،تشكلت من خلالها رؤية ،يصفون بها حالهم ،ويقاومون بها، في محاولةٍ لإثبات الذات، أو تنفيذ الفكر المقاوم للطبقية ،والتهميش، وتلك (الرؤية) لأولئك المُهَمَّشين، هي التي سأقيم عليها دراستي، وانطلاقاً مما سبق ،سنتوقف في هذا التمهيد؛ لإلقاء الضوء بإيجازٍ، على كلٍ من: (رؤية العالم)،(المُهَمَّشون)، (الحيل الدافعية لمقاومة الصراع).

1. رؤية العالم :

يحدد الفلاسفة والنقاد مفهومهم (للرؤية)، على إنه مصطلح نقدى " من المصطلحات التي شاعت في العقود الأخيرة، وذلك في مدى تأثرنا بالنقد الأوروأمريكي ومصطلحاته"[1]، وبداية نشأة هذا المصطلح كان " في أحضان نقد الرواية الجديد، ثم تمت استعارته إلى أكثر من مجال في مجالات النقد الأخرى، وبخاصة الشعر، ثم المسرح"[2].

ولم يكن (لوسيان جولدمانLucian Goldman*) هو أول من تطرق للمصطلح ،وإنما تناوله بعض المفكرين قبله ،حيث "يعد (دلثي) أول من استعمل مفهوم (رؤية العالم) ،في كتابه (مدخل لدراسة العلوم الإنسانية) ،حول الأساس الذي يمكن أن تقيم عليه دراسة المجتمع والتاريخ ،وخصه في مرحلةٍ تاليةٍ بمؤلفٍ مهم ،هو (نظرية النظرات إلى العالم حول الفلسفة)"[3]،فنجد أن " تصور الرؤية للعالم قد نشأ في الحقيقة على يد (دلثي Wilhelm Dilthey))،من منظور تأمل، لا يرتبط قط بالبحث عن مواطن انتساب المعرفة، في منحى الحياة الحقيقية ،وإنما في مناحي الكينونة المولِّدة لمجموعاتٍ روحانيةٍ شاملةٍ "[4]،ثم إنّ هذاَ المفهوم " اكتسب فعاليته المؤثرة على يد (جورج لوكاتشGyorgy Lukacs) في البداية، وذلك في كثيرٍ من كتاباته: حيث اتخذ هذا المفهوم أساساً للمقارنة بين الكتّاب "[5].

واتسم هذا المفهوم لدى الكُتَّاب السابقين على (جولدمان) عدا (لوكاتشGyorgy Lukacs) ،بعدم الدقة والغموض، " أما (لوسيان جولدمان Lucian Goldman) فقد بلور منهجاً دقيقاً بعد تطويره مقالات (لوكاتش)Gyorgy Lukacs– وهو منهج تتصدره مقولات كبرى مثل

(الكلية)،(والبنية الدالة)، فيما عرف بالبنيوية التكوينية "[6] ،حيث يرى "في منظور مادي جدلي أن الأدب ،والفلسفة تعبيران عن رؤية العالم "[7].

وفي تحليله للظاهرة الأدبية سعى (جولدمان Lucian Goldman) إلى "الربط بين العمل الأدبي وبين سياقه الزمني والتاريخي ،واهتم بمفهوم رؤية العالم ،التي تتكون من مجموعة الأشواق والعواطف ،والأفكار التي تجمع جماعة من الناس وتجعلهم على (تضاد) من المجموعات الأخرى "[8]،فرؤية العالم شكلت لديه تلك العدسة التي يجوب الناقد من خلالها النص اللغوي؛ لتبرير دوافع الإبداع النصي،التي هي في الحقيقة ليست دوافع فردية ،وإنما هي ترسبات لفكر طبقي ينتمي إليه المبدع ،وتطفو على النص (لا شعورياً)* ،حيث كان النص من خلالها مجرد "ظاهرةاجتماعية تفترض تعاضد جهود فردية "[9]

وهي بوصفها نظريةٌ اجتماعيةٌ خاصةٌ، تتمحور أبعادها حول مجموعةٍ استثنائيةٍ محددة ،للكشف عن القيم الخاصة بها، فتجعلهم أشبه بالرموز، التي تُشكِّل في مضمونها العميق، تصوراً خاصاً، تمنح القارئ من خلاله ،وصفاً عاماً حول ذلك الكيان المستقل، " فهو يأخذ من النقاد العقلانيين، تصورهم للرؤية، التي هي تجسيدٌ لنظرتهم، أو موقفهم من الحياة والواقع، ويأخذ من نقاد الحداثة تصورهم عن الرؤية ،التي تضيق معها العبارة ،وتحمل الشاعر في غواصة الخيال"[10]

فالعمل الأدبي مصدرُهُ الدافع الجماعي ،الكامن في إبداع الفرد المبدع ،"وهذه السمة الاجتماعية ،أو الجماعية التي يتصف بها العمل الأدبي نابعةٌ من اعتقاد مفاده: أن العمل الأدبي ،وإن كان مصدرُهُ ذاتٌ فرديةٌ، لكن هذه الذات عائمة في أوساط اجتماعية تنتمي إلى طبقات متباينة ،وتأتي (رؤية العالم) لتنسيق هذا التباين في تصور العالم، والطبيعة والإنسان، وهذا الدور التنسيقي ،أو التنضيدي من المُبدع هو الذي يجعل تلك الرؤى ذات طبيعة اجتماعية أو جماعية "[11]. حيث تنحصر وظيفة المبدع ،في بلورة ،ما تفكر فيه الجماعة، وتعايشه من الظروف ،يظهر ذلك من خلال العمل الأدبي؛ فيقدمه المبدع في صورةٍ منظمةٍ ،من أجل تغيير سياسات النظرة للطبقة من قِبل المجتمع.

ومما سبق يمكننا القول إنَّ رؤية العالم تكشف، عبر النص، عن الفكر الطبقي، لفئة استثنائية، عاشت ظروفاً غير معهودةٍ لغيرها من الطبقات، فتطرح من خلاله محاولةً للانسجام،

مع المجتمع، والمدخل الأسلم لفهم تلك المحاولة، يبدأ من النص وحده، الذي يعد دالاً ومدلولاً في الوقت نفسه، وذلك بما تطرحه لغة الفرد من عملية التناص مع فكر الجماعة .

وتقدم رؤية العالم وصفاً شاملاً، لنشاط الجماعة الإنسانية، من خلال شخصية الفرد المبدع ،بحيث تبحث عن المسار الذي عَبَّر فيه الواقع التاريخي والاجتماعي، عن الطبقة، داخل لغة النص، إذن فالمقولة التي تقضي بقتل أبعاد النص الكامنة، خلف اللغة ،مقولة غير مقبولة، لأن العالم هو الصانع لرؤية الجماعة، التي بدورها خلقت البنية التحتية للنص، من خلال إبداع الفرد.

فرؤية العالم هي عبارة عن : منهجٍ مركبٍ، تولَّد من النقد البنيوي الجديد، الذي يركز على البنية الداخلية للنص، ثم يجمع بينه وبين سمات النقد التقليدي، الذى ينظر فيما وراء النص؛ وذلك لتحديد موقفٍ عام، تجاه الحياة, يبرزه (فردٌ) ينتمي إلى (طبقة) من خلال إبداعه, فكانت الجماعة من أهم مقوماتها، ومن ثم فهي ترى الإبداع الأدبي ليس مجرد لغة، إنما تَوَجُّهٌ فِكريٌ قائمٌ على أسسٍ أكثر شمولاً للظاهرة ،التي يوظفها المبدع المتحدث باسم الجماعة في نتاجه ،فدافع الخلق الأدبي هو الفكر ،لا بالمفهوم التقليدي البارز، الذي يشير إلى مجرد الفكر الإبداعي للمبدع ذاته،إنما المقصود به هو (مجموع الأفكار التي تخص الفئة الاجتماعية ،هيأتها لذلك الثقافة الاجتماعية،ومقوماتها الأخرى ،ومن ثم انعكست داخل وعي المبدع، بلا إرادةٍ فعليةٍ، أو تخطيطٍ مسبقٍ منه) .

2. المُهَمَّشون :

تستخدم اللفظة للدلالة على الفئات المستبعدة داخل المنظومة الاجتماعية الواحدة ،"فهم يعيشون في الظل بعيداً،ويفقدون الأمل في البروز "[12]،وذلك وفق خضوعهم لسياسات التفكير غير العادل الذي يمارسه مجتمع البيض ،على الأقليات السوداء ،ففرض عليهم منهجيةً انعزاليةً خاصة ،وأخضعهم لقوانين شذت عن القوانين العامة، التي تخضع لها بقية أفراد المنظمة الاجتماعية ،فيصبح الهامشيَّ منتمياً "إلى جماعتين، أو أكثر ،تختلف مستوياتها الثقافية عن بعضها البعض ،كما يقصد به أيضاً، الفرد غير المُتكيِّف مع البيئة "[13]،وتناولت كتب علم الاجتماع المصطلح تحت مفاهيم متعددة الأشكال ،تقاربت فيما بينها ،في أن ذلك المصطلح يضم تحت طياته كل الفئات، التي تعيش خارج المتن الاجتماعي ،بغض النظر عن ماهية تلك الفئات ،فالمُهَمَّشون في ضوء ذلك ،عبارة عن "طبقة اجتماعية تتحدد عن طريق دخلها

المنخفض، ومستويات أعضائها التعليمية المنخفضة ،وكذلك من خلال نظرة أعضائها إلى أنفسهم ،ونظرة الآخرين إليهم ،في ضوء النسق الطبقي للمجتمع "[14].

والتهميش هو (الوجه الآخر) للاستبعاد الاجتماعي ،أو الانغلاق الاجتماعي"الذي أصبح موضوعاً رئيساً للبحوث الاجتماعية، في ستينات القرن الماضي.... وظاهرة التهميش ترتبط بالنظام الرأسمالي العالمي "[15]، ويمكن تقصي الظاهرة "بالرجوع إلى (فيبر) الذي عرَّف (الاستبعاد) بوصفه أحد أشكال الانغلاق الاجتماعي"[16]، وبداية استعمال المصطلح بمفهومه الحديث."(الاستبعاد الاجتماعي)، نشأ في فرنسا ،حيث جرت العادة على استعماله في الإشارة أساساً إلى الأفراد الذين تخطاهم (النظام البسماركي) للضمان الاجتماعي ،وكان المُستبعَدون اجتماعياً، هم أولئك الذين استبعدتهم الدولة بصورةٍ رسمية "[17]

فعملية التهميش ،عملية تتم بصورة تلقائية ،حيث يمارسها المجتمع على فئاتٍ بعينها ،وفق تقنياتٍ خاصة، تقوم على"حرمان فرد ،أو مجموعة من الأفراد،من حق الوصول إلى المناصب المهمة،أو الحصول على الرموز الاقتصادية ،أو الدينية ،أو السياسية ،للقوة في أي مجتمع ،وقد يحدث هذا في الواقع الفعلي ،أن تُشكل الجماعة الهامشية أغلبية عددية ،كما هي الحال بالنسبة للمواطنين الأصليين (السود)،في جنوب أفريقيا ،ولذلك فربما ينبغي التمييز بينها وبين الجماعة الأقلية ،التي قد تكون قليلة العدد،ولكنها قادرةٌ على النفاذ لمكامن القوة السياسية "[18].

الشعراء المهمشون في العصر الجاهلي:

وتقصد بهم الباحثة، هؤلاء الشعراء الذين أخضعهم عنصر اللون للتهميش، فأجبرهم أن يعيشوا حالاتٍ إنسانيةً متشابهةً، بحكم الانتماء إلى اللون ،فتصبح الدلالة اللونية ،هي العنصر الرئيس لقضية الرؤية، الصانع للأبعاد التاريخية المستقرة في ذهن الذات السوداء العامة، حول صراعها الأزلي مع الآخر الأبيض، ودراسة الرؤية للعالم في ظل القضايا الإنسانية التي يعايشها الشعراء السود، في هذه الأطروحة، ستتوزع على شخصياتِ ثلاث، شخصية الفارس الأسود (عنترة) أولاً، والصعلوك الأسود(السليك) ثانياً، ثم القن الأسود(سحيم) ثالثاً، بما سيضفي على الرؤية تنوعاً دلالياً، ولغوياً، ذلك في نطاق القضية المشتركة، التي يوظفها اللون على كلٍ منهم ،فجميعهم عاشوا صراعاً مع المجتمع، فعنترة أجبره لونه أن يخوض ذلك الصراع، ليثبت ذاته فارساً، والسليك قاد تجربة الاشتراكية، من خلال تصعلكه، بعد أن عجز عن تحقيق عدالته فرداً أسوداً داخل مجتمع البيض، أما مقولة (كل ممنوعٍ مرغوب) ،فهي التي صنعت من سحيم

شخصية العبد الفاحش، فإقصاؤه عن المجتمع، ومعاناته في اكتساب حقوقه، جعلته ساخطاً على مجتمعه ،مستغلاً كل قدراته للنيل منه.

الحيل الدفاعية :

وجدلية الصراع مع الأنا _في ظل الرؤية _ما هي إلا منطقة تجاوزية، ما بين الصراع الفكري الداخلي، والصراع الاجتماعي، فالشاعر الأسود اتخذ من الذات مجالاً؛ لإبراز بعض القضايا الإنسانية، بين محاولة تحديد الرؤية العامة للذات، بوصفها جماعةً سوداء، وبين الرؤية الخاصة بالفرد ،بوصفه جزءاً من جماعة، ربما تنهزم في ذلك الصراع أو تنتصر، وانتصار الذات أو انكسارها هنا ،كان متولداً من نوع الصراع وماهيته ،التي يعايشها المُهَمَّش ،ومن ثم تتولد لديه رؤيةٌ خاصةٌ لذاته ،قد تختلف عن رؤية الآخر له، وبدورها تختلف في مضامينها عن رؤية غيره من السود لذواتهم ،فستدرس الباحثة هنا ،الرؤية في ظل الصراع الذاتي الفردي ،والحيل الدفاعية ،وأثرها في إنتاج عامل المقاومة الذاتية.

وتشمل الأنا هنا مترادفين :الأول هو الذات المفردة للشاعر الأسود، بما فيها من اضطراب وعواطف ،ومتناقضات ،التي هي من الأساس جزءٌ من مجموعٍ أكبر ،هذا المجموع هو ما يعبر عنه المترادف الآخر، وهي الذات الجماعية، والمقصود بها هنا ذات المُهَمَّشين السود عامةً، وهي ذاتٌ فئوية، وما تتضمنه من الحالات الشعورية والظروف الاجتماعية الواحدة، فالصراع في حقيقته صراع داخلي ،مع الذات الشاعرة المفردة، يأتي معبراً عن أحداث الذات الجماعية الكبرى وصراعاتها .

وعُرِفت الذات على أنها " أفكار الفرد الذاتية ،المنسقة المحددة الأبعاد "[19]،وبما أن منهجية _رؤية العالم _ تتناول فكر طبقة أو جماعة معينة ،فسيطرأ التعريف لتعديلٍ طفيف ،من أفكار الفرد إلى أفكار الجماعة ،لأن الذات هنا ليست ذات الفرد المُهَمَّش، إنما ذات الجماعة التي تضم ذلك الفرد ،فتصبح اللفظة المفردة (ذات) ،لفظة شاملة دالة على فكر الطبقة، أو الجماعة المعنية بقضية الرؤية ،في ظل عوالم اللون والتهميش ،فالفرد رمزٌ للجماعة، والجماعة ما هي إلا رموزٌ متعددة، تضم أفراداً كُثُر ،فالذات المفردة لها دلالاتٌ جماعيةٌ، تنطوي على بعدٍ فئويٍّ لجماعة المُهَمَّشين .

وتتعدد الحيل الدفاعية وتتنوع، تبعاً للموقف المعيش، وسيلةً للانتصار ،على ما تخلقه الرؤية لديهم من أجواءٍ تهميشية ،فالرؤية هي الصانعة للصراع ،والصراع هوصانع تلك الحيل، ردود أفعالٍ تلقائية ،وتشمل :

1. العدوان :وهو إيذاء الغير أو الذات ،أو ما يرمز إليهما.
2. الاستسلام: هو الإذعان ،والامتثال ،والكف عن كل محاولة للتكيف مع الموقف المثير للإحباط، إقراراً من الفرد بعجزه.
3. الجمود: وهو تشبث الفرد بسلوك معين ،وتكراره بصورةٍ متحجرة ،بعد أن اتضح له أنه لا يغني ولا يفيد.
4. النكوص: وهو تراجع الفرد إلى أساليب طفلية أو بدائية من السلوك أو التفكير أو الانفعال ،حين تعترضه مشكلة ....فإذا به يستبدل بالطرق المعقولة لحلها ،أساليب ساذجة يبدو فيها تهلهل التفكير وغلبة الانفعال ."[20]

واقتصرت الحيل الدفاعية لمعالجة قضية (الرؤية والصراع الأنا)،على حيلتي الاستسلام ،والجمود، والمواقف الشعرية التي برزت من خلالها الرؤية توضح ماهية كل نوع .

ج . الدراسة :

1. الاستسلام:

أمام نمطية الحياة المتعمدة، التي صنعت لدى المُهَمَّشين من السود ،صراعاتٍ متعددة الأبعاد ،قد تنتهي بهم بعد طول المقاومة، إلى فقدان الشعور بالأمل ،فلا سبيل إلا الاستسلام، الذي تولد بدوره من رؤيةٍ خاصةٍ ،تحمل في طياتها ،سوداوية الموقف ،وخذلان الحياة المستمر، الذي يعكس مأساوية الصراع المعيش، لتلك الفئات هامشية الحضور داخل المتن، فتُسلِّم بالقدر، وترفع رايات الإذعان والطاعة ،وتقبل بالقيود، وترضى بالهوان المفروض .

وتمتزج بعض اللوحات لديهم ،في هذا الجانب ،بالشكوى المريرة والعتاب الشديد ؛لأنهم قدموا ما استطاعوا ولكن بغير جدوى ،ثاروا ،وانفعلوا ،وقاوموا ،ودافعوا ،وفي النهاية لم تُمنح تلك الأقليات حقوقها المهضومة ،لذلك هدأت نيران ثوراتهم ظاهرياً ،وكُبِتت لديهم كل المشاعر ،فسَلَّمُوا بالواقع دون رضى، تولد الصراعلديهم عن عقدٍ نفسيةٍ ناتجةٍ عن "مجموعةٍ من ذكرياتٍ، وأحداثٍ مكبوتةٍ، ومشحونةٍ بشحنةٍ انفعاليةٍ قويةٍ ،من الذعر أو الغضب ،أو الاشمئزاز ،أو الكراهية أو الغيرة "[21]فنجد عنترة يقول :

أُعاتِبُ دَهراً لاَ يلِينُ لعاتبِ وأطْلُبُ أَمْناً من صُرُوفِ النَّوائِبِ
وتُوعِدُني الأَيَّامُ وعْداً تَغُرُّني وأعلمُ حقاً أنَّهُ وعدُ كاذبِ[22]

وفي ظل ضوضائية الصراع في البيتين، تنبعث من داخل النفس المُهَمَّشة المضطربة ،رؤيةٌ بالطموح _أتت هامشية_، واحتلت من الأبيات لفظتين (أمناً)، و(وعداً)، فأمام تقلبات النظرة الاجتماعية للسود المُهَمَّشين ،يطالب الشاعر بأدنى الحقوق ،بثبوت النظرة لهم ،لذلك تأتي تلك الرؤية في صورة المصدر، الذي يعكس مدى الديمومة بالثبات، وحين لا تجد الذات المُهَمَّشَة لصراعها جدوى، يظهر لديها نوعٌ جديدٌ من الرؤية، يختلف عن رؤية المقاومة، فلا نرى إلا رؤية الاستسلام، حيلةً دفاعيةً منها؛ لتمارس المواطنة ،أدنى حقوقها، بوصفهم رعايا، داخل مجتمعاتٍ بدائية التفكير تلك، فنجد الصراع مستمراً على مدى البيت الأول ،والشطر الأول من البيت الآخر ،متمثلاً في خمسة أفعال مضارعة هي: (أعاتب)، و(يلين) ،و(أطلب)،و(توعدني)،و(تغرني)، في مقابل فعل وحيد ممثلاً لحيلة الاستسلام ،أتى في الشطر الآخر من البيت الآخر، وهو: (أعلم) ،ودلالة ذلك ليبرز مدى معاناته في الصراع، وسعيه لخلق رؤية إيجابية، يمنحها له المجتمع ،إلا أنه لا جدوى .

ولا تزال الرؤية الاستسلامية مسيطرةً على فكر المُهَمَّش ،بعد نفاذ كل الحيل، فتظل الأحداث بماضيها المهموم ،هي سيدة الموقف ،فيقول سحيم :

تــأَوَّبُني ذاتَ العِشــاءِ هُمــومُ   عَوامِــدُ مِنهــا طــارِفٌ وقَــديمُ[23]*

وَمــا لَـيلَـةٌ تأَتـي عَـليَّ طَـويلَـةٌ   بأَقصَـرَ مِــن حَـولٍ طَبـاهُ نَعــيمُ[24]*

وتعيش الذات المُهَمَّشَة إذاً صراعاً عنيفاً، تسيطر عليه تقنية الزمن ،(تأوبني) ،و(العشاء)، و(ليلة)، و(حول)، وَظَّف في مفرداته الثلاث الأولى، الليل ،بمصطلحه ودلالته السوداء؛ ربما لأنه أراد أن يعكس رؤيته حول مدى قتامة الحياة، ومعاناة المُهَمَّشِين السود، التي بدت في أشد صورها حين وَظَّف لها الليل رمزاً؛ لينقل رؤيته الخاصة، حول ذلك الصراع النفسي الذي يصارع فيه المُهَمَّش ذاته، حتى في وقت هجود الموجودات، فالجميع ينعم بالراحة ،إلا هؤلاء الذين اتخذوا من الليل ملجأً ،يمارسون فيه معاناة الاضطراب الذاتي اللاشعوري، الذي يخلقه الصراع ،ما بين محاولة التأقلم ومحاولة الخروج.

ولا تزال تقنية الزمن، أداةً يبرز المُهَمَّش من خلالها الصراع الذاتي، فاللغة الشعرية بدت تعكس تحولات الحياة (حول) ،من السئ للأسوأ، فالحياة طالت بقسوتها المستمرة التي لا تنتهي، والمقابلة بين شطري البيت الثاني تعكس ذلك،(ليلة _طويلة)، و(بأقصر من حول) والمقابلة هنا أتت مقلوبة الدلالة ،فالليلة بدت أطول من الحول ،إذ إن الرؤية هنا جاءت ذات مفهومٍ مميز، يصوره الشاعر المُهَمَّش ،من خلال اللغة، فقلب الدلالة يفيد قلب الموازين، في حياة المُهَمَّشين،

التي لاتسير على وتيرةٍ واحدة، وأمام الصراع الكامن داخل الذات، الذي أنتجته الرؤية، يصبح الاستسلام الذي جاء في صورة شكوى وعتاب، هو الملاذ الأخير للمُهَمَّش هنا ،بعد فشل كل محاولات التعايش السلمي.

فكانت الصورة الشعرية تحمل بعضاً من ملامح الهزيمة، وفقدان الأمل، فجاء الاستسلام حلاً بديهياً، لقسوة الصراع الذاتي، ولكن الاستسلام ،قد لايكون عادةً وليد هزيمة، إنما في أحيانٍ كثيرة يكون الاستسلام عن قِصَر يدٍ ،وقلة حيلة ،"فكل قوة لها وجهٌ آخر هو العجز"[25]،يقول السليك :

أَشابَ الرَأسَ أَنّي كُلَّ يَومٍ أَرى لي خَالَةً وَسطَ الرِجال

يَشُقُّ عَلَيَّ أَن يَلقَينَ ضَيماً وَيَعجِزُ عَن تَخَلُّصِهِنَّ مالي[26]

تسيطر على البيتين السابقين، رؤيةٌ جديدةٌ خاصةٌ بالسيلك، صعلوكاً أسود،هي رؤية العجز ،التي وَلَّدَت الصراع الذاتي، ما بين محاولة الوصول ،وبين عجز الواقع (أشاب)،و(يشق)، و(يعجز)، فالذات هنا تخلع نفسها من زمرة المُهَمَّشين ،وتتقمص دور الذات الحرة المُخلِّصة، لكن تلك هي مجرد رؤية ذاتية، يعيشها السليك، داخل فكره المجرد، تتكسر هذه الرؤية أمام الحقيقة في قوله : (خالةً وسط الرجال)، فهو إن خرج عن مألوف السود وتحرر متصعلكاً ،لا يملك ذلك إلا لنفسه ،فيصبح تأنيب الذات المتولد عن الصراع الداخلي العنيف ،هو أشد درجات الاستسلام قوةً ؛لأن الاعتراف هو سيد الأدلة، وهنا هو يعترف بعجزه وقلة حيلته ،بصورةٍ أخرى يعترف بالهزيمة التي لا يمتلك أمامها إلا الاستسلام .

وقد تمتزج نبرة الشكوى بالانكسار،ثم التبلد، في مضمون الرؤية، فتظهر الذات المُهَمَّشة ذاتاً مستسلمةً، راضيةً بكل أقدارها، فكما كانت هي الدافع للمقاومة، تصبح الآن المحفز الأول لرفع رايات التسليم ،ذلك أن "الأغلبية العظمى من علماء النفس يتصورون الأنا من حيث هو مركز للرغبات والأفعال ،على أنه حاضرٌ حضورٌ مادي ،في كل لحظة من لحظات حياتنا "[27]، فتصل حدة الصراع داخل الرؤية ،أن تنعكس زوايا الصراع، على ذلك الجسد الأسود الضعيف ،فتصبح الشخصية السوداء شخصيةً واهنةً ،و بالية، مادياً ومعنوياً،كما في قول سحيم :

كَسوني غَداةَ الدَّارِ سُـمراً شياطين لم تترك فؤاداً ولا عهدا

فما السجنُ إلَّا ظلُّ بيتٍ سكنتهُ وما السوطُ إلَّا جِلدةً خالطت جِلدا[28]

ولا تزال إحداثيات الزمن (غداة) عاملاً أساسياً، لممارسات الشعراء السود المُهَمَّشِين ،في تحويل الصراع الذاتي القائم إلى صراعٍ فكريٍ من خلال التعبير الشعري اللغوي ،فتوظيفه للفظة

(غداة) للتوقيت _وهي الوقت ما بين الفجر وطلوع الشمس_ يفيد التداخل والاختلاط، والعجز عن تحديد الماهية، فترتسم من خلالها ملامح الشخصية المُهَمَّشة ،العاجزة عن حسم المصير ،التائهة بين خرافات الفكر، وصراعات الواقع، وأمام التنازع القائم، الذي تكون الذات السوداء مادته الأساسية ،لا يجد المُهَمَّش علاجاً لما يجوب داخل نفسه ،إلا الشكوى، التي رغم استسلامه من خلالها، لا تزال تحمل حبال الأمل غير المقطوع .

وحين تشتد الأزمة وتنهار المقاومة ،وتفشل كل الأسلحة، وتتضح وهمية الرؤية لديهم، التي قامت على قناعتهم " بدافع تحقيق الذات ،والسلوك الهادف ،لتحقيق النمو والتحرر ....وإن الإنسان خيرٌ في جوهره، ولا حاجة للسيطرة عليه والتحكم به"[29]، فلا يجد السود إلا الاستسلام، نافذةً الخلاص، فتصبح الذات ذاتاً مستسلمةً، غير مباليةً بما سيحدث، كما في قول سحيم :

المـالُ مـالُكم والعبدُ عبدُكُم	فهل عذابكَ عَني اليومَ مَصروفُ
لا تبكِ عينيكَ إنَّ الدهر ذو غِيَرٍ	فـيه تَفَرقٌ ذو إلـفٍ ومـألوفُ[30]

إنها اعترافاتٌ صريحةٌ ،تهدم كل مقاومة للصراع قبلها ،(مالكم)، و(عبدكم)، فالتسليم هنا كان وسيلة استنقاذ للذات من العدوان، فاعترافها الشفوي قد لا يعني بالضرورة إيمانها، وقناعتها النفسية بما تقول ،فالمُهَمَّش غالباً ما يصاب بحالةٍ من اليأس، "والامتثال ،والكف عن محاولة التكيف مع الموقف المثير للإحباط ،إقراراً من الفرد بعجزه "[31]، فالذات السوداء تعيش صراعاً داخلياً مؤلماً، يعرضه الجناس الناقص بين الألفاظ (المال) و(مالكم)، و(العبد) و(عبدكم)؛ ليشير إلى اشتقاق الجزء من الكل، فينقل عبرها دلالة انسلاخ الفرد المُهَمَّش عن المجموع، ولا يزال المُهَمَّشون، في معالجتهم الصراع الذاتي يربطون ذلك الصراع بالزمن (عذابك)،و(اليوم) ،وكأنه ملمحٌ من ملامح الرؤية، التي يطمحون بها إلى إنهاء ذلك الصراع الذي لا ينتهي .

وفي البيت الآخر يظهر مواسياً لذاته(لا تبكِ)، فالحرب الداخلية، والاستسلام للصراع ،مع ضعف الوسائل للمقاومة، لم تجد الذات المُهَمَّشمة أمام كل ذلك ،لها متنفساً إلا فيما أتى به من صورةٍ تلقائيةٍ للبكاء العفوي (لا تبكِ) ،الذي يعلل الشاعر أسبابه (ذو غيرٍ) ،و(تفرقٌ) ،فكانت تلك الألفاظ مشيرةً إلى مفاتيح الرؤية لديه ،فالمُهَمَّشون السود انعدمت لديهم الرغبة في الحياة ؛لأنهم عايشوا تقلبات الدهر وتفرق الأزمنة .

وفي ظل الأجواء التهميشية والصراع الأزلي، مابين السود وبين مجتمعاتهم ،يبذل هؤلاء كل ما في وسعهم لمحاولة التعايش، تنهزم ذواتهم كثيراً ،فيستسلمون للواقع ،نتيجةً متوقعة من ذلك المُهَمَّش ،بعد صراع "على مدى تاريخ طويل، يتراوح فيه بين الآخر الداخلي والآخر الخارجي"[32] ،فيأتي عنترة معاتباً من بعد الاستسلام ،فيقول:

إذا فاضَ دَمعِي واستهل على خَدِي وجاَذبنِي شَوقِي إلى العِلم السَعدِي

أَذكرُ قومـي ظُلمهم لِـي وبَغيـُهم وقِلة إنصافِي على القُربِ والبعدِ[33]

تظل الذكرى المؤلمة راسخةً في أذهان المُهَمَّشِين ،تطفو على السطح بمجرد نشوب الصراع دواخلهم، فتأتي جملة (إذا فاض دمعي)، مقترنةً بجملة (أذكر قومي ظلمهم)، فيظل الدمع رد فعلٍ تلقائي من المُهَمَّش، في ظل الصراع القائم ،الذي قد يعبر عن استسلامٍ مؤقت، يتجاوز المُهَمَّش به الأزمة؛ لأن الفعل ارتبط بشرط، ولا يتحقق الفعل (الاستسلام بالبكاء)، إلا إن تحقق الشرط ،المتعدد الأركان في البيت الآخر ،(أذكر قومي ظلمهم)، ثم (بغيهم) ،ثم(قلة إنصافي) ،فالفعل جاء مقترناً شرطه بثلاث جمل، وهذه سمةٌ بارزةٌ في أشعار المُهَمَّشين، إذ يأتي الصراع موصوفاً بأكثر من جملة، في حين تأتي الحيل الدفاعية موصوفةً بجملةٍ واحدةٍ أو جملتين على الأكثر، وفي ذلك دلالة على مدى تعددية العدوان داخل الصراع ،الذي تبطل حياله كل السبل الدفاعية، فيصبح الاستسلام مجرد وسيلة دفاعية، يُنهي بها المُهَمَّش مأساته في الصراع.

2. الجمود (أحادية الرؤى) :

لا تقتصر حيل المُهَمَّشِين الدفاعية على مجرد الاستسلام، بشتى صوره، وإنما تتعداه إلى حيل أخرى، كالجمود الذي يلزم فيه الفرد سلوكاً واحداً، ويسعى إلى تكراره لمواجهة الأزمة، فتتوقف إبداعية التفكير، من أجل الحرية، وتتجمد السلوكيات حول سلوكٍ واحدٍ متكرر، وعلى الرغم من أنه بغير جدوى، لكن المُهَمَّشِين يرون فيه ضالتهم المفقودة، وسبيلهم الأمثل للخلاص؛ لأن الذات تبلور من خلاله ،ذلك الجانب الخفي ،الذي تجهله المجتمعات عن السود، فإيمانهم بالجانب الإيجابي الخفي لديهم هو االدافع إلى تكرارية السلوك، والتشبث الدائم به؛ لأنه من الثوابت لديهم ،والثوابت قادرةٌ على محو المتغيرات الممارسة عليهم من قبل الآخر .

فيظل ذلك السلوك المتكرر النافذة الوحيدة للمُهَمَّشِين السود، لمواجهة السلوكيات المتعددة والمختلفة من الآخر، التي تصنع لديهم اضطراباً في الشخصية، بدوره يُوَلِّد صراعاً متعدد

الجوانب، تتقيه الذات السوداء بالاتكاء على ثوابت الشخصية، التي تتمثل في سلوكيات، أو مسلمات لديهم، ومن مُهَمَّشٍ لآخر تختلف أساليب التعبير عن الجمود، باختلاف الشخصيات، ووجود فروقٍ فرديةٍ خاصة، تميز كلًّا منهم عن غيره ،على الرغم من معايشة واقع متشابه الأحداث ،فلديهم "استعداد لا شعوري ،لا يفطن الفرد إلى وجوده ،ولا يعرف أصله ومنشؤه ،وكل ما يشعر به هو آثار العقدة في سلوكه وشعوره وجسمه " [34]، وتلك أضفت جوانباً مميزةً لدى كلٍ منهم، فالتقنيات الفكرية للأسود الفارس مثلاً، تختلف شكلاً ومضموناً عن الأسود الصعلوك ،فالأول يتكئ على مقوماته الخاصة، التي أهلته لها تجاربه المتعددة في ميادين الحروب، وكثيراً ما تحقق ذلك عند عنترة الفارس، في شعره ،الذي طالما عالج نقصه وتهميشه، بالتفوق الحربي، والتفوق الأخلاقي ،فيقول:

وَإِن كانَ جِلدي يُرى أَسوَداً فَلي في المَكارِمِ عِزٌّ وَرُتبَه

وَلَو صَلَّتِ العُربُ يَومَ الوَغى لِأَبطالِها كُنتُ لِلعُربِ كَعبَه

وَلَو أَنَّ لِلمَوتِ شَخصاً يُرى رَوَّعتُهُ وَلَأَكثَرتُ رُعبَه[35]

وترتبط الرؤية فيما سبق من الأبيات ،بتقنياتٍ دفاعيةٍ متعددةٍ ،ناتجة عن" صراعتها بين لغة الأنا المتصارعة من داخلها، بين قناعتها بالعيش في ظلال الجماعة، وضرورة الانتماء إليها ،والالتزام بقضاياها ،وبين خلاصها إلى تأمل تجاربها الخاصة؛ لتبحث عن هويتها الفردية، في زحام الأعباء القبلية، والصيغة الاجتماعية العامة "[36]، مَثَّل أولها :الاعتراف بسواد الجلد (أسوداً)، وهذا الاعتراف تَوَّلد في أصله عن صراعٍ ذاتي عنيف ،لا يهدف المُهَمَّش فيه إلى الاعتراف، لمجرد الاعتراف، وإنما يحوله بذكائه ،إلى حيلةٍ دفاعيةٍ(فلي في المكارم عزٌّ ورتبةٌ)؛ ليعوض نقصه ،فالجانب الإيجابي لديه ،يعضد من رؤيته الذاتية ،فضمائر المتكم بين شطري البيت الأول، في كلٍ من (جلدي)، و(فلي) ،تفيد المساواة، فالذات السوداء لدى عنترة ،لا يؤثر السواد فيها؛ لأن الأخلاق تداويها .

فيتحول الصراع لديه من صراعٍ داخليٍ، إلى صراع خارجي ،يحاول أن يثبت فيه البطولة ،وتتداخل الصورة الشعرية ،مابين صورة الحرب في الموقف الحالي (الوغى)، وبين صورة الموت (للموت)؛ لينتقل بنا من الصراع الذاتي ،الذي انتصر فيه المهمش بالاعتراف على ذاته بالسواد،إلى الصراع الخارجي، الذي تبرز قوته

بقوة الصور المُوَظَّفة فيه، والإنسان بطبيعته يهاب الموت والحرب، إلا أن صورة عنترة تأتي فارضةً هيبتها على الموقف ،مدافعاً بها؛ ليتجاوز بها صراعه الخارجي متمثلاً في أفعال الشرط (لوصلت)، و(لو أن الموت)، وأجوبتها (كنت للعرب كعبةً)، و(لأكثرت رعبه)،حيلةً دفاعيةً من المُهَمَّش لتجاوز أزمة الصراع ،فعنترة يلجأ في صراعه الداخلي إلى التفوق الأخلاقي، وفي صراعه الخارجي إلى التفوق الحربي ،وتظل هذه الحيلة الدفاعية متكررةً، بصورتيها الأخلاقية والحربية، في أشعار عنترة ،في ظل صراعاته المتعددة ،فالرؤية لديه تنتقل إلى "الفعل في وعي الدلالة ثم في وعي الإثبات " [37].

وكأمثاله من المُهَمَّشِين ،يقاوم سحيم صراعه مع ذاته، من خلال رؤيته المتفردة لشخصيته، فتصنع لديه موقفاً دفاعياً، تلقائياً ثابتاً،في كل مواقف الهزيمة النفسية التي يمر بها، فهو كغيره من المُهَمَّشين ،الذين أصبحوا يواجهون الأزمة بحالةٍ من "التبلد وعدم الاكتراث واللامبالاة"[38]، فيأتي جموده حيال الموقف، سبيلاً للمقاومة ،عارضاً جانباً من جوانب تفوق الذات فيقول:

أشعارُ عبدِ بني الحسحاسِ قُمنَّ له يوم الفخارِ مَقامَ الأصلِ والوَرقِ

وإن كنتُ عبداً فنفسي حرةً كرماً أو أسودُ اللونِ فإني أبيضُ الخلقِ[39]

و ما بين الصراع مع الآخر، والصراع مع الذات ،تكون حياة المُهَمَّش حياةً مضطربةً متذبذبةً ،تصبح فيها الشخصية المُهَمَّشة شخصيةً نكرةً ،غير محددة الملامح الاجتماعية؛ لذلك يسعى الشاعر الأسود هنا إلى تجاوز الصراع، من خلال الاعتراف، ثم تطويع ذلك الاعتراف، إلى وسائلٍ دفاعيةٍ، فالرؤية هنا واضحة عَبَّر عنها الشطر الأول من البيت الآخر ،(عبد بني الحسحاس)، فالرؤية تولدت لديه من رؤيته لذاته، ولكن بأعين المجتمع ،فأمام الاعتراف الصريح بالعبودية ،يعالج وهن نفسه، ويقرنه بثغرة ينفتح من خلالها ،على تلك العوالم الخفية للمُهَمَّشين السود، يثبت عبرها مدى تفوقه الذاتي،(أشعار)، واللفظة وُظِفت في الأبيات من خلال التشبيه التمثيلي(قُمنَ) ،وكأنه يعكس على اللغة رؤيته المتولدة عن الصراع ،فشعوره بالنقص ،جعله يُكسِب المعنوي صفة المادي، فالتجسيد يجعل المعنى أقوى في

الحضور، فالأشعار كانت إنسان يدافع وينتصر لنفسه، ويسعى لتعويض النقص ،فالأشعار كانت بديل المفقودات لديه ،فالمُهَّمش فاقدٌ للأصل، فاقدٌ للمال، وسحيم مُهَمَّشاً قد استعاض عما يفقده بإلقائه الضوء على الجانب الآخر لذلك العبد ،والذي لا يُعرض منه سوى قتامة المظهر وانعدام الملكية .

ولا تزال صورة الصراع مستمرةً، فتنتقل من البيت الأول إلى البيت الآخر ،(عبداً)، فتكرار لفظة العبودية يشير إلى مدى حجم المعاناة، التي بدورها تعكس قوة المقاومة الذاتية ،التي تمثلت باقتران لفظ العبودية بالفعل الماضي (كنت)، وكأن اعترافه لا يضره شيئاً؛لأنه يرى أن العبودية فترة نفسية، قد وقعت وانتهت، واجتازها في اللغة كما اجتازها في الواقع ،فالمقاومة الذاتية جاءت متمثلةً في صيغة الاسمية (نفسي حرة)، و(أسود اللون)؛ لينقل دلالة الثبات والديمومة، في مقابل صيغة الفعلية، التي جاءت في جملة اعترافية واحدة (كنت عبداً)، وكأن رؤيته الإيجابية لذاته هي الرؤية الثابتة لديه ،لا يغيرها وقتٌ ولا زمان ،أما رؤية المجتمعات للسود هي الرؤية المتغيرة .

ومن هنا كانت الرؤية لدى المُهَمَّشين مشتركةً في كثيرٍ من ملامحها الاجتماعية ،دفعت بهم إلى أن يسلكوا الحيل الدفاعية نفسها، لكن الجانب المختلف الذي يميز كل شاعرٍ منهم ،دفع بهم إلى ابتكار حيلة جديدة، ميزت كل أسود عن غيره ،خلقتها ملامح الشخصية المُهَمَّشة ،ذات الأبعاد الخفية الخاصة في شخصياتهم ،" الفرد يعيش في عالمٍ متغيرِ ... لكل فرد حقائقه الخاصة التي قد تختلف عن حقائق غيره ،وما يمتلكه الفرد من حقائق ،تمثل العالم المدرك بالنسبة إليه " [40]،بما يمنح كلاً منهم ،تقنياتٍ خاصةً مكنتهم من التأقلم مع الصراع الخاص لديهم .

فنجد رؤية عنترة رؤيةً متميزةً ،عن غيره من المُهَمَّشين ،فالموقف الدفاعي لديه متنوع لا ينحصر على الاستسلام المؤقت، أو الجمود، بالالتزام بموقفٍ دفاعي ثابت ،إنما يتجاوز ذلك إلى محاولة "تأكيد وتحقيق وتعزيز ذاته "[41]، من خلال بث الأمل داخله ،ورسم ملامح الشخصية الحالمة الطامحة ،على أبياته فيقول:

ما زِلتُ مُرتَقِياً إلى العَلياءِ حَتّى بَلَغتُ إلى ذُرى الجَوزاءِ

فَهُناكَ لا أَلوي عَلى مَن لامَني خَوفَ المَماتِ وَفُرقَةِ الأَحياءِ*

فَلَأُغضِبَنَّ عَواذِلي وَحَواسديوَلِأَصبِرَنَّ عَلى قِلًى وَجَواءِ*

وَلَأَجهَدَنَّ عَلى اللِقاءِ لِكَي أَرى ما أَرتَجيهِ أَو يَحينَ قَضائي

وَلَأَحمِيَنَّ النَفسَ عَن شَهَواتِهِ حَتّى أَرى ذا ذِمَّةٍ وَوَفاءِ[42]

ويلجأ الشاعر المُهَمَّش هنا إلى حيلةٍ دفاعيةٍ جديدةٍ، تتجسد من خلال رسم الشخصية المثالية، والتي يتقمص المُهَمَّش دورها ،لمواجهة الصراع الكامن داخل الذات، فالرؤية هنا جاءت رؤيةً متميزةً ،رؤيةً مستقبليةً طامحةً، متميزةً بملامح الثبات والاستمرارية ،(مازلت)، ويعيش الشاعر في أجوائه الخيالية الخاصة (بلغتُ إلى ذرى الجوزاء)، التي تتحول لديه إلى حقيقة يعيشها هو وحده في عوالمه الخاصة (هناك)، فخيالية الرؤية ووردية الصورة، صنعتها قسوة الواقع، ومعاناة الصراع لديه ،فهو يستبدل سوداوية الحقيقة التي يعيشها، بخيال الرؤية التي يطمح إليها فكره.

إن ممارسة تعددية الحركة في الرؤية، بتعددية الأفعال داخل الصورة، تشير إلى مدى تأثير الصراع عليه ،فالحركة والاضطراب داخله لا يرممها فعلٌ واحد، إنما خمسة أفعال ،(ألوي)، و(لأغضبنَّ)، و(لأجبرنَّ)، و(لأجهدنَّ)، و(لأحمينَّ)، جاءت في صورة المضارعة، المؤكَّدة غالباً؛ لتنقل دلالة الاستمرارية في العدوان، من قبل الآخر(من لامني)، و(عواذلي)، و(حواسدي)، و(قلي)، و(جواء).

والأفعال معظمها يأتي مُؤكَداً بعاملي اللام والنون، وكأنه يشير إلى تأكيد الموقف، وثبات الرؤية لديه، في مواجهة صراع داخلي، متولدٌ في أصله عن تقلبية النظرة الاجتماعية، وعدم ثباتها

ولما كان السليك ممثلاً لفئةٍ خاصة، من السود المُهَمَّشين ،كان ذا نكهةٍ خاصةٍ، في ممارسته الحيل الدفاعية لمقاومة الصراع الداخلي، حيث يسعى إلى إثبات الذات المتصعلكة، والدفاع عنها برسم الصورة المثالية، الخالية من الفتور، في مقابل التنكيل بذات العبد ،في سبيل الكشف عن رؤيته الخاصة، التي تسعى إلى تعرية الثقافة الجاهلية، وكشف زيف سياستها المتعسفة، حول حقوق المُهَمَّشين السود " فالإنسان ينزع حيثما كان إلى إدراك العالم المحدود ،الذي يحيا داخله ،على أنه فضاء تسود خارجه قوى الظلام الغاشمة ،وقوى الفوضى والسديم ،ولذلك يرى العالم الذي يأنسه الإنسان ،يحتل مركز الكون ،ويحتل محوره ،محتضنٌ وراء قلاعه الحقيقية أو الموهومة "[43]،فيقول في بيتين نسبا إليه ،وليسا في ديوانه المحقق:

وما نلتُها حتى تصعلكتُ حقبـةً وكنتُ لأسبـابِ المنيَّـةِ أعرفُ

وحتـى رأيـتُ الجـوعَ بالصـيف ضـرني إذا قمـتُ تغشـاني ظـلالٌ فأسدفُ*[44]

إنها حيلةٌ دفاعيةٌ جديدةٌ، تسيطر على الموقف الشعري القائم، يلجأ إليها هذا الُمَهمَّش ،منتصراً بها على الصراع المميت الذي عبَّر عنه، من خلال قسوة المشهد الشعري، في البيتين السابقين ،تتضمن تلك الحيلة رسم الصورة الإيجابية للتصعلك ،في مقابل الطعن في الصورة الأخرى السلبية للعبودية ،فرؤيته الخاصة جاءت مُعظِّمةً الصعلكة ،واصفةً إياها بالمنقذة ،المُخَلِصة من تشوهات الشخصية التي خلفتها العبودية لديه،(ما نلتها حتى تصعلكت)،فالصراع هنا صراعٌ حي، ناتجٌ عن ترسبات الصورة السلبية، فعلى الرغم من تجاوز الأزمة لدى الأسود الصعلوك هنا، تظل مخلفاتها الفكرية والشعورية، تشوب بعضاً من خلجات نفسه، ولذلك تأتي الجمل الفعلية ثلاثاً؛ لتبرز حركة الصراع ،واضطرابه داخل ذات المُهَمَّش،يعمد إلى تجسيد إحداها؛ ليبرز قوة الفعل الممارس على الذات (رأيت الجوع)، والجوع لايرى ،فتجسيد المحسوس بالملموس، والمعنوي بالمادي، تقنية شعريه يوظفها الأسود، حين تتحول المأساة لديه ،من مأساةٍ معنوية إلى مأساةٍ جسدية فيصبح الصراع صراعاً مضاعفاً.

الخاتمة:

تعددت الحيل الدفاعية لدى الشعراء السود المُهَمَّشين ،ما بين الاستسلام الوقتي تارةً، والجمود بالالتزام بممارسة فعلٍ ثابتٍ متكررٍ؛ لمواجهة الصراع تارةً أخرى، حيث ساهمت رؤيتهم العامة، بوصفهم مُهَمَّشُون سود، في لجوئهم إلى الحيل نفسها، وممارستها بالطريقة نفسها، بحكم خضوعهم لجماعة إنسانية واحدة، تحركها الدوافع الثقافية المترسبة لديهم في منطقة اللاشعور .

أما عن ابتكارهم وسائل دفاعيةٍ مختلفة، ذات سمات خاصة، تميز بها كل واحدٍ عن غيره، فقد خلقتها لديهم الرؤية الخاصة، التي تولدت من العوامل النفسية للشخصية المُهَمَّشة ،فالذات السوداء وتهميشها ،كانت هي العامل المشترك بين الشعراء ،لكن لكل شاعرٍ منهم ظروفاً خاصة ،لا يعيشها غيره ،جعلت الرؤية لديهم ذات ملامحٍ شخصيةٍ، لا تبرز إلا لدى صاحبها، ولذلك

طرحت هذه الرؤية الخاصة حيلاً دفاعيةً، ميزت الشاعر عن غيره ،في محاولةٍ جادةٍ منهم؛ للانتصار لقيم الذات العليا، ومن خلال ذلك تم التوصل إلى النتائج التالية :

1- عنترة :

تسيطر على عنترة شخصية الفارس البطل ،تلك الشخصية عكست سماتها الخاصة على الرؤية ،من حيث التهيؤ والاستعداد المسبق ،بل الاقتناع التام بالانتصار ،فصنعت رؤيته تلك حيلةً دفاعيةً خاصةً ،رسم من خلالها ،ملامح الشخصية الحالمة الطامحة ،لمواجهة الصراع الذاتي القائم، وتمثل ذلك في :

أ- الاستسلام :

كان الاستسلام لدى عنترة استسلاماً مؤقتاً، وليد لحظة ضعفٍ، يتلاشى لديه من خلال تعددية الفعل الذاتي ،المقاوم للصراع عبر الحركة المستمرة ،في مقابل ثبوت صورة الآخر وفعله داخل الصراع ، فالاستسلام إذن كان مجرد حيلةٍ، لجأت إليها شخصية الفارس؛ لتجاوز محنةٍ مؤقتةٍ، يصنعها الصراع الداخلي، الذي تخلقه ذكريات الماضي ،وصعوبات الحاضر.

ب_ الجمود (أحادية الرؤى):

في ظل الصراع القائم، ما بين محاولة العيش في ظل الجماعة، وبين محاولة الخلاص ،لتشكيل الهوية الفردية، يلجأ عنترة في قضية مقاومة الصراع، إلى الجمود، حيلةً دفاعية، فلا تتحقق رؤيته داخل الصراع الذاتي ،فارساً،إلا بالاستمرار على ممارسة صيغة دفاعية واحدة، ذات فعلٍ ثابتٍ، متمثلةً في الاتكاء على الصورة الأخلاقية ،أو صورة الفارس .

2- سحيم :

وحياة سحيم المستهترة ،جعلت منه صاحب صورةٍ تقليديةٍ نمطيةٍ ،في أساليبه الدفاعية ،وتمثل ذلك في:

أ_الاستسلام :

بدت شخصية الأسود هنا، منحصرةً حول توظيف الصورة الفكرية ،المحددة في نطاق استرجاع الماضي ،في ظل الشكوى والعتاب،فكان الاستسلام لديه غالباً، استسلاماً واقعياً، ليس مجرد حيلةٍ فكريةٍ يطرحها عبر النص؛ لتجاوز أزمته عبر الصراع الذاتي، فلم يكن الاستسلام هنا حيلةً للنهوض كما كان لدى عنترة .

ب_الجمود :

يواجه سحيم أزمة الصراع الذاتي لديه، من خلال رسمه المستمر لصورة الذات لديه، فلجأ إلى مسايرة القدر في صورته، التي صنعها حول الشخصية السوداء تلك، ووظف لها رد فعلٍ ثابت، تمحوره صورته لذاته، وبذلك ينتصر على صراعه الداخلي الذي وَلَّده اللون، عبر مقومات الشخصية لديه، فينتصر على ذاته ثم على الآخر، من خلال رسم الجانب الأخلاقي والفكري، حيلة دفاعية مستمرةً لديه في صراعه .

3- السليك :

وأما السليك فعُرف عنه انحيازه لصعلكته،واستطاع أن يوظف أبعاد تلك الشخصية حيلةً دفاعية خاصة في أشعاره ،فسعيه لإثبات الذات المتصعلكة ،كان من أقوى الأسس الدفاعية المتميزة لديه، وتمثل ذلك في :

1_الاستسلام :

على الرغم من تحرر السليك من قيود التهميش الإجباري، إلى التهميش بإرادته من خلال الصعلكة، لكن الاستسلام كان واقعاً مفروضاً، أجبرته الظروف على ممارسته، فكان الاستسلام لديه وليد عجز، مَثَّله الاعتراف الصريح به، وهذا العجز لم يكن عجز الذات عن نيل حريتها، إنما عجز الذات عن تحرير خاصتها، فالاستسلام صنعه الصراع الذاتي ،الذي خلقه تأنيب الضمير ،فأُخضِع لذلك.

ب_الجمود :

والسليك بوصفه صعلوكاً، أصبحت هذه الشخصية عامل الدفاع الستمر لديه ،في صراعه ما بين صورة العبد الأسود، وبين صورة الصعلوك الأسود، ومن خلال الصورة الأخرى يستطيع السليك تجاوز عقدة اللون، وثقوب التهميش ،التي رسمتها الصورة الأولى ،فتصبح صورة الصعلوك قادرةً أن تكون بمفردها موقفاً دفاعياً ثابتاً؛ لمواجهة أزمات الصراع التي يمر بها .

توصية الباحثة :

لا زال الموضوع بحاجةٍ إلى دراساتٍ متعددةٍ، باستخدام مناهج أخرى، مثل تطبيقات البنيوية، والأسلوبية، والتداولية ....

هـ_ المصادر والمراجع:

أولاً / المصادر:

1_ سحيم عبد بني الحسحاس:ديوانه ،تحقيق أنور أبوسويلم ،دار جرير،عمَّان ،2014.

2- السليك بن السلكة : ديوانه،تحقيق حميد آدم ،كامل سعيد،مطبعة العاني ،بغداد 1984.

3_ السليك بن السلكة:شعراء تميم في الجاهلية والإسلام ،الجزء الثاني ،القسم الأول منالشعراء، عبد القادر فياض حرفوش،دار البشائر ،دمشق ،2002

4_ عنترةبن شداد :ديوانه ،دار بيروت للطباعة والنشر ،1984

5_ابن منظور: لسان العرب ،ات :عبد الله علي الكبير وزميليه ،دار المعارف،القاهرة.

ثانياً/ المراجع:

المراجع العربية:

1_أحمد بدوي : معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان بيروت،1977

2_ أحمد عزت :أصول علم النفس،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،ط7، 1968 .

3_ بشير تاوريرت : مناهج النقد الأدبي المعاصر دراسة في الأصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيقية ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة، 2008

4_ثناء أنس الوجود: رؤية العالم عند الجاهليين. قراءة في ثقافة العرب قبل الإسلام.، عين للدراسات والبحوث، القاهرة 2001 ط1

5_جابر عصفور : رؤى العالم عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ،2011، ط2

6_حسن شحاته :الذات والآخر في الشرق والغرب ،صور ودلالات وإشكاليات، دار العالم العربي ،القاهرة ،2008.

7_حلمي القاعود :: النقد الأدبي الحديث بداياته وتطوراته ،دار النشر الدولي،الرياض،2006.

8_ الطاهر لبيب:صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه ،مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت، 1999

9_ عبده بدوي :الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1988

10_ عبداللهالتطاوي : أشكالالصراعفيالقصيدةالعربية – مكتبةالأنجلوالمصرية – القاهرة 1989م.

11_عبد الرحمن تبرماسين :إشكالية المركز والهامش في الأدب ،مجلة المخبر ،أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة ،الجزائر

12_فرج عبد القادر، وآخرون ،معجم علم النفس والتحليل النفسي، دار النهضة، بيروت، ط1

13_لوسيان جولدمان :الإله الخفي، ترجمة زبيدة القاضي،، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب،دمشق، 2010

14_لوسيان جولدمان وآخرون :البنيوية التكوينية البنيوية التكوينية والنقد الأدبي ،محمد سبيلا ،مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ،ط2، 1986

15_محمد عاطف غيث :قاموس علم الاجتماع ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،1999،

16_محمد فوزي الدسوقي، مركز تطوير الآداء والتنمية،القاهرة ،2012

المراجع الأجنبية:

1_ بول ريكور:فلسفة الإرادة _الإنسان الخطاء_،ترجمة / عدنان نجيب الدين،المركزالثقافي العربي ،المغرب،ط2، 2008.

2__ جان بول سارتر :تعالي الأنا موجود ،ترجمة وتقديم / حسن حنفي ،مكتبة الفكر الجديد ،بيروت ،2005.

3_جون سكوت، جوردن مارشال : موسوعة علم الاجتماع، ترجمة/ أحمدزايد وآخرون، مراجعة وتقديم / محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة،ط2، 2011

4_جوردون مارشال :موسوعة علم الاجتماع ،ترجمة :أحمد عبد الله وآخر ،مراجعة محمد الجوهري ،المجلس الأعلى للثقافة ،2000

5_جون هيلز :الاستبعاد الاجتماعي محاولة للفهم ،ترجمة محمد الجوهري ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،الكويت، 2007

---

[1]– جابر عصفور : رؤى العالم عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة2011 ط2 ص 13

[2]– ثناء أنس الوجود: رؤية العالم عند الجاهليين. قراءة في ثقافة العرب قبل الإسلام.، عين للدراسات والبحوث، القاهرة 2001 ط1 ص 3

***لوسيان جولدمان (1913،1970) :فيلسوفماركسي، وناقد أدبي روماني الأصل، درس على جورج لوكاتش ،و صار من أتباعه، كماتعاون مع عالم النفس جان بياجيه ،تعاوناً وثيقاً، عاش الجزء الأكبر من حياته فيفرنسا، وحقق شهرته الأوسع بما أنجزه في علم اجتماع الأدب، خاصةً كتابه الإلهالخفي 9551،وهو دراسة سوسيولوجية، لأدب باسكال وراسين، أصبح في أواخر حياتهناقداً مهماً للبنيوية، عرض اتجاهه العام في تناول الثقافة، في كتابه الإبداعالثقافي 1970، انظر موسوعة علم الاجتماع ،جون سكوت، جوردن مارشال ،ترجمة/ أحمدزايد وآخرون، مراجعة وتقديم / محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة،ط2، 2011، المجلد الأول ،ص606**

[3]بشير تاوريرت : مناهج النقد الأدبي المعاصر دراسة في الأصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيقية ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة، 2008، ص51_52

[4]لوسيان جولدمان وآخرون :البنيوية التكوينية البنيوية التكوينية والنقد الأدبي ،محمد سبيلا ،مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ،ط2، 1986، ص97

[5]– ثناء أنس الوجود: رؤية العالم عند الجاهليين. صـ 7

[6]– ثناء أنس الوجود:رؤية العالم عند الجاهليين صـ8

[7]لوسيان جولدمان :البنيوية التكوينية ص48

[8]حلمي القاعود ::النقد الأدبي الحديث بداياته وتطوراته ،دار النشر الدولي،الرياض،2006،ص294

*اللاشعور : هو الرغبة الجارفة، التي يدري عنها الفرد شيئاً، و لكنها تؤثر فيه لكي يسلك سلوكاً معيناً، قد يكون ضد إرادته. انظر : محمد فوزي الدسوقي، مركز تطوير الآداء والتنمية،القاهرة ،2012، ص274

[9]لوسيان جولدمان :الإله الخفي، ترجمة زبيدة القاضي،، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب،دمشق، 2010، ص28

[10]جابر عصفور:رؤى العالم عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر ،ص25

[11]بشير تاوريرت: مرجع سابق:ص55

[12]عبد الرحمن تبرماسين :إشكالية المركز والهامش في الأدب ،مجلة المخبر ،أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة ،الجزائر ،ص33

[13]أحمد بدوي :معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان بيروت،1977 ،،ص257

[14]محمد عاطف غيث :قاموس علم الاجتماع ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،1999،ص274

[15]جوردون مارشال :موسوعة علم الاجتماع ،ترجمة :أحمد عبد الله وآخر ،مراجعة محمد الجوهري ،المجلس الأعلى للثقافة ،2000،المجلد الأول ،ص520

[16]جون هيلز :الاستبعاد الاجتماعي محاولة للفهم ،ترجمة محمد الجوهري ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،الكويت،، 2007 ،ص 22

[17]جون هيلز :الاستبعاد الاجتماعي محاولة للفهم ص23

[18]جوردون مارشال :موسوعة علم الاجتماع، المجلد الأول ،ص520

[19]حسن شحاته :الذات والآخر في الشرق والغرب ،صور ودلالات وإشكاليات، دار العالم العربي ،القاهرة ،2008،ص25

[20]أراجع أحمد عزت :أصول علم النفس،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،ط7، 1968 ص471–474

[21]أحمد عزت:المرجع سابق،ص116

[22]عنترة بن شداد :ديوانه ،دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ،1984،ص103

* الطارف :هو المستحدث، وهوخلاف التالد،انظر ابن منظور، لسان العرب ،ات :عبد الله علي الكبير وزميليه ،دار المعارف،القاهرة،ج9 ،مادة(طرف)،ص214

* طبى : طببته عن الأمر، أي صرفته، انظر السابق، ج15، مادة(طبي)،ص3

[24]سحيم عبد بني الحسحاس:ديوانه ،تحقيق أنور أبوسويلم ،دار جرير،عمَّان ،2014، ،ص144

[25]بول ريكور:فلسفة الإرادة _الإنسان الخطاء_،ترجمة / عدنان نجيب الدين،المركزالثقافي العربي ،المغرب،ط2، 2008،ص98

[26]السليك بن السلكة :شعراء تميم في الجاهلية والإسلام ،الجزء الثاني ،القسم الأول منالشعراء، عبد القادر فياض حرفوش،دار البشائر ،دمشق ،2002،ص445

[27]جان بول سارتر :تعالي الأنا موجود ،ترجمة وتقديم / حسن حنفي ،مكتبة الفكر الجديد ،بيروت ،ط1 ،2005 ،ص45

[28]سحيم :ديوانه،ص95_96

[29]حسن شحاته :الذات والآخر في الشرق والغرب ،صور ودلالات وإشكاليات، دار العالم العربي ،القاهرة ،2008، ص23

[30]سحيم :ديوانه ،ص120_121

[31]أحمد عزت :أمرجع سابق ،ص473

[32]الطاهر لبيب:صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه ،مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت ،1999،ص229

[33]عنترة :ديوانه، دار بيروت ،ص129

[34]أحمد عزت :أمرجع سابق ،ص117

[35]عنترة :ديوانه، دار بيروت ،ص 90

[36]– عبدالله التطاوي : أشكال الصراع في القصيدة العربية – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة 1989م، ج1ص32

[37]بول ريكور :مرجع سابق ،ص72

[38]أحمد عزت :مرجع سابق ص473

[39]سحيم :ديوانه،ص140

[40]حسن شحاته:مرجع سابق ،ص24

[41]السابق ص26

* لوى عليهم يلوي، إذا عطف عليهم وتحبَّس، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج 15، مادة (لوي)،ص264

*القِلَى: البغض، السابق نفسه، مادة (قلا)،ص198

جواء : الجَوى هو الحرقة وشدة الوجد، من عشقٍ أو حزن، السابق، ج14، مادة (جوا)، ص157

[42]عنترة :ديوانه، دار بيروت ،ص87

[43]الطاهر لبيب :مرجع سابق ،ص90

*أسدف :أظلمانظر اين منظور، لسان العرب، ج9، مادة (سدف)، ص146

[44]السليك :ديوانه، حميد آدم ،ص60